ISSN/ 2788-9777

المجلة العلمية لجامعة سيئون

مجلة علمية محكمة - نصف سنوية - ، تعنى بنشر البحوث العلمية في مجالات العلوم الإنسانية والتطبيقية . تصدرها نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي

المجلد الرابع العدد الثاني ديسمبر ٢٠٢٣م

نظريات نشأة اللغة (دراسة تحليلية)

لطيفة عبدالله مُحَّد آل عائض*

ملخص البحث:

يرمي هذا البحث إلى عرض أهم النظريات التي وضعت تصورًا لنشأة اللغة، وهي نظريات لا ترتقي في مجملها إلى أن تكون تفسيرًا حقيقيًّاً ونهائيًّاً لنشأة اللغة؛ لعدم استنادها إلى أدلةٍ قطعيةٍ، بل ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وتوصلوا إلى نظرياتٍ عديدةٍ. ولكي تُحققَ الباحثة أهدافها، وتصل إلى غاياتها؛ قسمتْ البحث على ثلاثةِ مباحث، تسبقها مقدمةٌ، وتمهيد، وتعقبها خاتمةٌ، وجملةٌ من المصادر والمراجع.

تناولت المقدمة أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطة الدراسة، أما التمهيد فتناول تعريف اللغة وأهميتها، ونظريات نشأة اللغة، وتضمن المبحث الأول الحديث عن نظرية التوقيف والإلهام، واحتوى المبحث الثاني على نظرية المواضعة والاصطلاح، في حين المبحث الثالث كان عن نظرية محاكاة الأصوات، ثم انتهى البحث بالخاتمة التي توصلت فيها الباحثة إلى أهم النتائج، ثم جملة من المصادر والمراجع التي اتكأ البحث عليها، والتي أضاءت طريق البحث.

الكلمات المفتاحية: اللغة ، نشأة، نظرية

*قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية ،تخصص لغويات،جامعة الملك خالد ،السعودية.

Theories of the Origin of Language :Analytical study

Latifa Abdullah Mohammed Al Ayed*

Abstract:

This thesis aims to review the key theories that have attempted to construct a conceptualization of the origin of language. These theories do not generally provide a realistic final explanation of the origin of language due to the lack of decisive evidence. Instead, various theories emanating from disparate hypotheses and reaching different conclusions have been developed.The thesis falls into three chapters, preceded by an introduction and a preliminary, and followed by a conclusion and bibliography.

The introduction deals with the significance of the topic, research methodology and the organization of the thesis. The preliminary deals with definition and importance of language as well as theories of the origin of language. Chapter one deals with the revelationist theory. Chapter two deals with the conventionalist theory, whereas Chapter three deals with the Bow-wow theory. The conclusion summarizes the main findings of the study. The bibliography lists the references used by the researcher.

Keywords: Language, Origin, theory

*Department of Arabic langage, Major Linguistics, King Khalid University, Saudi Arabia.

المقدمة

الحمد لله الذي يُفقِّه مَن أراد به خيرًا في الدِّين، ويرفع درجات العلماء العامِلين، فيجعلهم أئمَّة للمتَّقين، وهُداة للعالمين، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله، وبعد

فمن المعلوم أن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، وهي لغةٌ مقدسةٌ عند المسلمين؛ لأنها لغة القرآن الكريم، ولقد شغلت قضية نشأة اللغة الإنسانية المفكرين على مر العصور، وتصدى للبحث فيها كثير من العلماء، والفلاسفة، والمتكلمين، واللغويين، وبُذلت جهود كثيرة، وأجريت تجارب متعددة لكشف هذه القضية، فلم يجمعوا على قول واحد، بل ذهبوا في البحث مذاهب شتى، وتوصلوا إلى نظريات عديدة.

والمنهج المتبع في هذه البحث هو المنهج الوصفي، القائم على الملاحظة والوصف والتحليل، وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثةِ مباحث، ثم الخاتمة، ثم جملةٍ من المصادر والمراجع.

تناولت المقدمة أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطة الدراسة، أما التمهيد فتناول تعريف اللغة وأهميتها، ونظريات نشأة اللغة، وتضمن المبحث الأول الحديث عن نظرية التوقيف والإلهام، واحتوى المبحث الثاني على نظرية المواضعة والاصطلاح، في حين المبحث الثالث كان عن نظرية محاكاة الأصوات، ثم انتهى البحث بالخاتمة التي توصلت فيها الباحثة إلى أهم النتائج، ثم جملة من المصادر والمراجع التي اتكأ البحث عليها، وأضاءت طريق البحث.

التمهيد

أولًا: تعريف اللغة وأهميتها:

لم يستعمل العرب كلمة (لغة) في كلامهم، وإنما كانوا يستعملون كلمة (لسان) للدلالة على اللغة، والقرآن الكريم لم يستعمل هذه اللفظة بالمعنى المعروف عندنا، وإنما استعملت بمعنى الساقط من الكلام الذي لا طائلة تحته[1]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت:26) واستعملت بمعنى القول الباطل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمن:3)، "واللِسْنُ، بكسر اللام: اللغة. يقال: لكل قومٍ لِسْنٌ، أي لغة يتكلمون بها " [2]، وقد وردت كلمة لسان في القرآن بمعنى (اللغة) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(إبراهيم:4)

اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاقٌ شاملٌ على مفهومٍ محددٍ للغة؛ ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها إلى الخلط بين حقيقة اللغة ووسيلة إبرازها، ويعد تعريف اللغة عند ابن جني من التعريفات الدقيقة إلى حد بعيد؛ إذ قال: "حدها: فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[3]، وهذا تعريفٌ دقيق يذكر كثيرًا من الجوانب المميزة للغة؛ فقد أكد ابن جني أولًا الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضًا أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم.

ووصفها ابن خلدون بقوله:" اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"[4]، وقد عرف الباحثون المحدثون اللغة بتعريفات مختلفة، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية للغة، والوظيفة الاجتماعية لها، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع إنساني لآخر.

إن اللغة أهم ما يميز الإنسان عن غيره؛ فهي أساس الحضارة البشرية، وهي وسيلة التواصل بالعالم الذي يعيش فيه، ونظامٌ من الرموز الذي يخضع لقواعد محددة، ومكونٌ من إشاراتٍ منطوقةٍ يعبر بها الفرد عن حاجاته ورغباته ومشاعره [5]، لذا أضحت أهمية اللغة في حياة المجتمعات واحدة من العوامل الأساسية في تكوين أي مجتمع؛ كونها الوسيلة الأساسية للتفاهم، وترجمة المشاعر والأحاسيس، وتكتسب اللغة أهميتها من خلال اهتمام اللغويين وغيرهم من العلماء الذين ينتمون إلى تخصصاتٍ علميةٍ مختلفةٍ بها.

من خلال التعريفات السابقة نستنتج أن اللغة ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها البشر، ومنذ التقى الإنسان بغيره وهو يحتاج إلى وسيلة تفاهم، ومن أرقى الوسائل التي وصل إليها الإنسان في تفاهمه مع أخيه اللغة الصوتية.

ثانيًا: نظريات نشأة اللغة:

اختلفت آراء العلماء من قدماء ومحدثين في موضوع نشأة اللغة؛ فكثرت فيه النظريات، واختلفت المذاهب، ومع ذلك لم يصلوا في بحثهم إلى نتائج يقينية، بل كان جُلُّ آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية، غير أن بعضهم ظل يتساءل عن سر اللغة حاملة الفكر، وناقلته من جيلٍ إلى جيلٍ، فتناولوا هذه القضية، وتساءلوا عن ماهية اللغة: أمواضعة هي أم إلهام؟، وقد عُني ببحثِ هذه المسألة الفلاسفة، وعلماء اللغة، وعلماء الأصول، وعلماء المنطق، وعلماء النفس، والاجتماع، والتاريخ.

وقد ذكر أبو عبدالرحمن ابن عقيل بعض فوائد هذا المبحث ومنها [6]:

1. أن اللغة ليست أقل من غيرها من العلوم؛ إذ إن النفس مجبولة على الكشف عن بدايات الأشياء وتطورها.

2. نشأة اللغة أمر مهم في معرفة تطورها، ومن ثم الوصول إلى إمكان الاجتهاد فيها.

3. أخذت هذه المسألة من الأسلاف أوقاتًا واستغرقت كتبًا، فالتواضع لهم أن نتبع سبيلهم، ونذكر خلافهم.

4. أن المسألة فيها نصوص شرعية، ومن فقه دراسة هذه النصوص أن نعلم معناها، وما تشتمل عليه.

وسنعرض فيما يلي لأهم النظريات التي وضعت تصورًا لنشأة اللغة، وهي نظريات لا ترتقي في مجملها إلى أن تكون تفسيرًا حقيقيًا ونهائيًا لنشأة اللغة؛ لعدم استنادها إلى أدلةٍ قطعيةٍ، بل ذهبوا في ذلك مذاهب شتى وتوصلوا إلى نظرياتٍ عديدةٍ أحصاها الدكتور أنيس فريحة، فبلغت تسع نظريات هي [7]:

1. نظرية البو - بو.

2. نظرية الأصوات التعجبية العاطفية.

3. نظرية الاستجابة الصوتية.

4. نظرية دراسة نشأة اللغة عند الطفل.

5. نظرية الإشارة الصوتية.

6. نظرية دراسة اللغات القديمة.

7. نظرية محاكاة الأصوات.

8. نظرية الإلهام والتوقيف.

9. نظرية الاصطلاح.

وسيقتصر البحث على الثلاث النظريات الأخيرة؛ كونها النظريات البارزة بينها، وبغية عدم تضخم البحث.

المبحث الأول: نظرية التوقيف والإلهام

التوقيف: هو تفعيل من الوقف، والياء للنسبة، والوقف في اللغة: مادة تدل على الحبس والمنع، ومنه التوقيف هنا؛ إذ المراد به الوقوف على نصِّ الشارع، فلا يَجوز الكلام في هذا الباب بطريقِ القياس أو الاشتقاق اللُّغوي، بل يكتفى بما وردت به نصوصُ الشرع لفظًا ومعنى، فعلم بذلك أنَّ التوقيف هو الاقتصار في الوصف والتسمية على ما وردت به الآيات القرآنية والآثار النبوية لفظًا ومعنى [8].

اللغة لم توجد ابتداءً على صورتها الحالية دفعةً واحدةً، وإنما وجدت بصورةٍ تراكميةٍ خلال مدد طويلة من الزمن، أسهمت المجتمعات الأولى في عملية ولادتها ؛ فقد بدأ الإنسان من نقطة الصفر ويظهر ذلك في قوله

تعالى:﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:78) ، وبدأ الإنسان في رحلة التعلم منذ أن تم نُفخ فيه، فتفعلت عنده الحواس، وسار في الأرض لينظر كيف بدأ الخلق، وكان خطاب الله للملائكة بعد إتمام خلق آدم؛ ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني، وليكون كالاستشارة لهم تكريمًا لهم، وبيان ما خفيَ من حكمة خلق آدم.

ذهب الأشعري من أهل السنة والجبائي، والكعبي من المعتزلة، وابن فارس من اللغويين، إلى ترجيح رأي ابن عباس القائل بأنَّ أصل اللغات كلها توقيفية، بمعنى: إمَّا أن الله تعالى علَّم آدم بطريق التلقين، وذلك بعرض المسمى عليه، فإذا رآه لقَّن اسمه بصوت مخلوق يسمعه، فيعلم أنَّ ذلك اللفظ دالٌّ على تلك الذات بعلم ضروري، وإمَّا علَّمه بطريق التعليم، وذلك بإلقاء علم ضروري في نفس آدم، بحيث يخطر في ذهنه اسم الشيء عندما يعرض عليه، فيضعُ له اسمًا، بأنْ ألهمه وضع الأسماء للأشياء، ليمكنه أن يفيدها غيره، بأن خلق فيه قوة النطق وجعله قادرًا على وضع اللغة[9].

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: [30]:"سُمي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم اللون، وكنيته أبو مُحَمَّد وأبو البشر، فلمَّا خلقه الله علَّمه أسماء الأشياء وذلك أن الملائكة قالوا: لما قال الله :﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:30]؛ ليخلق ربنا ما شاء، فلن يخلق خلقًا أكرم عليه منا، وإن كان فنحن أعلم منه؛ لأنا خلقنا قبله، ورأينا ما لم يره، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم، وفيه دليل على أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلًا كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة".[10]

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلى رأيين، هما:

الرأي الأول: وهو المشهور عن بعض المفسرين[11]: المقصود بالأسماء هو أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الأسماء التي علمها آدم ثم عرضها على الملائكة، فقال ابن عباس ما حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: " علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان،

ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها" [12].

قال الزمخشري: "أي أسماء المسميات، فحذف المضاف لكونه مدلولًا عليه بذكر الأسماء؛ لأنَّ الاسم لابد له من مسمى، كما نقل الطبري مجموعة من الروايات تدلُّ على أنَّ المراد بالأسماء هي أسماء الأشياء التي يتعارف الناس بها، وأسماء كل الأشياء"[13].

الرأي الثاني: للإمام الرازي، فيرى أن المقصود بالأسماء صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، وليس رموز الأشياء أو أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات، ووجه ذلك أنَّ الاسم مشتقٌ إما من السِّمة أو من السُّموّ، فإن كان مشتقًّا من السِّمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهيتها، أو علامات على هذه الماهية، فَصَحّ أن يكون المراد من الأسماء والصفات[14].

وهذا يوضحُ أنَّ المعرفة متوقفةٌ على معلوماتٍ سابقةٍ أو مسبقةٍ، وهو ما أشارت اليه الآية القرآنية الكريمة بوضوح، فحصول المعرفة لدى الإنسان متوقف على معلوماتٍ أو معارفٍ مسبقةٍ علمها من قبل الله عز وجل، مهما كان حجم هذه المعارف، ومهما كانت طبيعتها أو عددها.

إن لهذه النظرية أنصارها منذ القدم؛ فهي تنسب للفيلسوف اليوناني (هيرا لكيت)، ومال إليها بعض المحدثين منهم الفرنسي (لامي)، وقال بها بعض علماء المسلمين ومنهم: ابن فارس، وابن عباس [15].

لعل ابن جني هو خير من يعكس لنا حيرة فقيه اللغة في ذلك الزمن بين التوقيف والاصطلاح، وقد سجل تردده في غير موضع من كتابة (الخصائص)؛ إذ يقول في باب القول على أصل اللغة إلهامٌ هي أم اصطلاح: " هذا موضع محوج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف" [16]، وانتهى به الأمر إلى أنه وقف موقفًا وسطًا، فقال بالإلهام والاصطلاح معًا، إذ يقول:" فأقف بين تين الخلتين حسيرًا، وأكاثرهما فأنكفئ مكثورًا وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها أو يفكها عن صاحبتها قلنا به" [17].

احتجاج القائلين بالتوقيف بوجوه والجواب عنها [18]:

أولًا: يبدو واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 30]، يبدو أنّ الأسماء كلها معلمة من عند الله بالنص وكذا الأفعال والحروف؛ لعدم القائل بالفصل،

ولأن الأفعال والحروف أيضًا أسماء، والاسم ما كان علامة، والتمييز من تصرف النحاة لا من اللغة، والتكلم بالأسماء وحدها متعذر.

ثانيًا: أنه سبحانه ذم قومًا في إطلاقهم أسماء غير توقيفية في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾(النجم:23) وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية.

ثالثًا: يظهر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 22]، والألسنة اللحمانية غير مرادة؛ لعدم اختلافها، ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر فالمراد هي اللغات.

رابعًا: لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغةٍ، أو كتابةٍ، ويعود إليه الكلام، ويلزم إما الدور، وإمّا التسلسل في الأوضاع وهو محال، فلا بد من الانتهاء إلى التوقيف.

والجواب عن الحجة الأولى: لم لا يجوز أن يكون المراد من تعليم الأسماء الإلهام إلى وضعها، وعن الثانية: أنه تعالى ذمهم؛ لأنهم سموا الأصنام آلهة واعتقدوها كذلك، وعن الثالثة: أن اللسان هو الجارحة المخصوصة وهي غير مرادة بالاتفاق، والمجاز الذي ذكرتموه تعارضه مجازاتٌ أخر نحو مخارج الحروف، أو القدرة عليها، فلم يثبت الترجيح، وعن الرابعة: أن الاصطلاح لا يستدعي تقدم اصطلاح آخر بدليل تعليم الوالدين الطفل دون سابقة اصطلاح ثمة. وبهذا وغيره يتبين أن الأدلة المساقة لا تنهض بهذه النظرية، ولا تقوى على الوقوف في وجه الاعتراضات.

المبحث الثاني: نظرية المواضعة والاصطلاح

يعرف الاصطلاح بأنه: اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقله عن موضوعه الأول، وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر، لمناسبةٍ بينهما، وقيل: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل: إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر؛ لبيان المراد [19].

تقرر هذه النظرية أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجلت ألفاظها ارتجالًا، ومال الكثير إليها من العلماء والمفكرين، ومن أشهر الباحثين بها في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني (ديموكريت)، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنكليزي (آدم سميث)، و(ريد)، و(دجلد ستيوارت)[20]، وقد أيد الباحث العربي العالم ابن جني أيضًا رأي أصحاب هذا الاتجاه؛ إذ أشاروا إلى أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة وقد صوّر ذلك ابن جني

بقوله: "وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة من المواضعة، وقالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا؛ فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منهم سمةً ولفظًا، إذا ذكر عُرف به مسماه؛ ليمتاز به عن غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين"[21]، وقال ابن تيمية مصورًا هذه النظرية: " أن قومًا اجتمعوا ، واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا، وهذا بكذا، ويجعل هذا عامًا في جميع اللغات، وهذا القول لا نعرف أحدًا من المسلمين قاله قبل أبي هاشم الجبائي"[22]، وقال ابن النجار في شرح الكوكب المنير: " إن اللغة اصطلاحية، وضعها واحدٌ أو جماعة، وعرف الباقون بإشارةٍ وتكرار" [23]، وهذه الأقوال تبين لنا رأيهم بأن اللغة مواضعةٌ واتفاقٌ بين الناس.

القول بأن اللغة تواضع وليس وحيًا أو توقيفًا، يترتب عليه القول بأن معاني الألفاظ أيضا مكتسبة وليست أزلية، بمعنى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة عرفية يمليها العرف وليست منزلة من السماء، فمثلًا لفظ شجرة في اللغة العربية، هل دلالته على الشيء المسمى شجرة دلالة طبيعية ذاتية، أو أن العرف جعل الناس يطلقون على هذا الشيء اسم شجرة، بحيث كان من الممكن أن يحل أي لفظ آخر محله للإشارة إلى الشيء المسمى شجرة؟ ناقش علماء العربية هذه المسالة تحت عنوان(مناسبة الألفاظ للمعاني)، وخلصوا إلى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة وضعية وليست طبيعة جوهرية أزلية، وشذ عنهم قوم منهم عباد بن سليمان من المتكلمين، وذهب إلى أن الألفاظ تدل على المعاني بذاتها، يقول: " بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية موجبة حاملة على الواضع أن يضع، وإلا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحًا من غير ترجيح" [24].

يتوارد أحيانا لفظ الاصطلاح في صيغة النسبة النعتية مع عبارة التواضع مقترنين بالتواجد، وذلك في عبارة (التواضع الاصطلاحي)، على أساس أن أنظمة اللغة هي تقديرات اصطلاحية وقع التواضع عليها من أهل الاصطلاح، فتتراكم الدوال المختلفة لتتفحص فكرة المواضعة بحصرها في بؤرة دلالية نوعية تستجمع عناصرها وتمنع غيرها من ملابستها، ومن ذلك المظهر الاستقصائي تحديد الكلام بكونه معطى مصطلحًا عليه ينْبَنِي على وضع الأسماء الدالة بالتواطؤ، فتتألف الأصوات كتلًا، وتصير أدواتًا لسانيةً متميزةً بالاتفاق والاصطلاح، فإذا استقامت اللغة على عمود الاصطلاح تسنى لبَنِي الإنسان أن يستدعيها من بعضهم [25].

احتجاج القائلين بالاصطلاح بوجهين [26]:

أولًا: لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف، والتقدم باطل، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلا بد من واسطة بين الله والبشر وهو النبي؛ لاستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد، وبيان بطلان التقدم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [سبأ: 28]، وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة.

ثانيًا: لو كانت اللغات توقيفية فذلك إما بأن يخلق الله تعالى علمًا ضروريًا في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غير العاقل، وإمّا بألا يخلق علمًا ضروريًا أصلًا.

والجواب عن الأولى من حجتي أصحاب الاصطلاح: لا نسلم توقف التوقيف على البعثة لجواز أن يخلق الله فيهم العلم الضروري بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا، وعن الثانية: لم لا يجوز أن يخلق الله العلم الضروري في العقلاء أن واضعًا وضع تلك الألفاظ لتلك المعاني، وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضروريًا سلمناه لكن لم لا يجوز أن يكون الإله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء.

والخلاصة: إن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغةٍ صوتيةٍ يتفاهم بها المتواضعون، فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟ وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل، فهذه الصورة الخيالية للمواضعة، إذا افترضنا تصورها مع الأسماء، فمن الصعب تصورها في الأفعال فضلًا عن الحروف التي لا يوجد لها معادل في الواقع.

المبحث الثالث: نظرية المحاكاة

احتلت اللغة منذ نشوئها المكان الأول والأهم في علاقات الإنسان مع البيئة المحيطة به؛ لأن اللغة تعد أرقى ما لدى الإنسان من مصادر القوة والتفرد؛ كونه الكائن والوحيد الذي يتصل بغيره عن طريق الألفاظ المتمثلة بلغة الكلام.

تتلخص هذه النظرية بأن نشأة اللغة بدأت محاكاةً للأصوات الطبيعية، وتقليدًا للأصوات المسموعة من الحيوانات، والأشجار، وصوت الرعد، وغيرها، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الإنسانية، وتقدم الحضارة، وذهب بعضهم أول من أشار إلى ذلك ابن جِنّي في الخصائص إذ قال: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل" [1]؛ ولكنه لم يستقر على هذا الرأي أيضًا بعد أن ناقش الرأيين السابقين، والأسلم ألاّ ننسب الرجل إلى مذهب بعينه من المذاهب الثلاثة

وإلى هذه النظرية يميل كثيرٌ من الباحثين المعاصرين، ويرون أنها تساير طبيعة الأشياء التي تبدو بسيطة ثم تنمو وتتطور، فاللغة من منطلق هذه النظرية بدأت تقليدًا لأصوات الطبيعة، وقد يكون المتكلمون استخدموا مع ذلك التعبيرات والإشارات، ثم استُغني عن ذلك فيما بعد، واستند هؤلاء أيضًا إلى لغة الطفل التي تبدأ تقليدًا، ثم تنمو وتستقيم، وأن كثيرا من الأمم البدائية تستخدم الإشارات اليدوية، والجسمية للمساعدة في التعبير.

وُجهت انتقادات واعتراضات على هذه النظرية، ومن ذلك [27]:

1. أنها تنزل بالإنسان إلى ما هو أقل منه، فليس من المعقول عند المعترضين أن يقلد الإنسان صوت الحيوان، والأصوات المسموعة الأخرى.

2. أن اللغات الراهنة لا تشتمل إلا على قدر ضئيلٍ من الكلمات التي تتضح فيها الصلة بين اللفظ والمعنى.

3. أن كثيرًا من الأمم البدائية يتكلمون بلغات لا يظهر فيها أثر المحاكاة والتقليد للطبيعة.

وصفوة القول أننا لا نستطيع أن نرد كل ألفاظ اللغة إلى محاكاة الطبيعة، كما أننا لا نستطيع أن نهمل هذه النظرية إهمالًا تامًا، فهناك قسطٌ لا بأس به من ألفاظ العربية يمت بصلة وثيقة إلى أصوات الطبيعة.

هناك العديد من النظريات التي حاولت تفسير قدرة الإنسان على إنتاج الكلام وابتكار اللغة، ومن هذه النظريات ما يأتي [28]:

1. نظرية Ding-Dong : تقوم هذه النظرية على مبدأ وجود رابط غريب بين الأصوات والمعاني.

2. نظرية ماما: تفترض النظرية بشكل أساسي أنّ اللغة نشأت محاولة فطرية للتخاطب بين الطفل وأمه.

3. نظرية تاتا: تقوم على افتراض أنّ اللغة تابع فطري وعفوي للحركة.

4. نظرية pooh-pooh : تعتبر هذه النظرية أنّ الكلمات الأولى جاءت من التعبير الغريزي العاطفي لمشاعر الإنسان كالألم والدهشة.

5. نظرية الغناء: يفترض واضع هذه النظرية أنّ أول كلمات الإنسان كانت طويلة، وتحمل لحنًا موسيقيًا خاصًا.

الخـاتـمـة

نستخلص من هذا البحث عن نشأة اللغة أن هناك العديد من الآراء نحو أصل اللغة؛ فقد اختلف العلماء في نقطة البداية فيها، ومنهم من حاول التوفيق بين مجموعة نظريات، وقد توصلت الباحثة إلى مجموعة من النتائج كانت على النحو الآتي:

1. اللغة لا تعد فقط أداة تعبير، أو وسيلة تفاهم بين أصحابها، وإنما هي أحد أهم عوامل التواصل العقلي والعاطفي بين الأفراد؛ فاللغة جزءٌ لا يتجزأ من المجتمع، و من ثم ي عاملٌ من عوامل وحدته، بل هي الركن الرئيس لهذه الوحدة.
2. لم يستعمل العرب كلمة (لغة) في كلامهم، وإنما كانوا يستعملون كلمة (لسان) للدلالة على اللغة، واختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدد للغة.
3. شرَّف الله آدم على الملائكة؛ بتعليمه الأسماء كلَّها؛ لقوله تعالى :﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وعرضها على الملائكة، في تحدٍّ وتعجيزٍ لهم؛ لإنبائه بأسمائهم ليظهر لهم قلة علمهم، وعدم صدق ظنهم في أن هذا الخليفة سيعصي الله، ويُفسِد في الأرض.
4. خلاصة موقف ابن جني من نشأة اللغة أنه وقف موقفًا وسطًا، فقال بالإلهام والاصطلاح والمحكاة معًا.
5. يُمكن الجمع بين هذه الأقوال جميعًا – وهو الأولى – بالقول بأنَّ اللغة توقيف وإلهام في الأصل، ثم تواضع الناس عبر التاريخ على وضع ألفاظ معينة، ولا مانع من وضع بعض الألفاظ مُحاكاة للأصوات الموجودة في الطبيعة، فجاز لأجل ذلك كله اختلافُ اللغات وتبايُنُها، وبهذا الرأي تندفع القوادح التي تلزم كل رأي على حِدَة.

أخيرًا، فإنَّ ما توصلت إليه الباحثة ليس نهاية المطاف، بل يبقى مشروع القراءة مفتوحًا، وتبقى النصوص كذلك في متناول الباحثين، فهي بحاجة إلى الاستنطاق والتحليل على وفق رُؤى جديدة؛ للوصول إلى آفاق لم تستطع الباحثة الوصول إليها.

الهوامش:

[1] ينظر: الزمخشري، محمود عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ 197/4.

[2] الجوهري، إسماعيل حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، 195/6.

[3] ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، (د.ت)، 34/1.

[4] ابن خلدون، عبدالرحمن مُحَمَّد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، ١٤٠٨هـ، 753/1.

[5] ينظر: قناوي، هدى مُحَمَّد، وآخرين، علم نفس النمو، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)، 155/2.

[6] ينظر: الظاهري، مُحَمَّد عمر، اللغة العربية بين القاعدة والمثال، (د.ت)، ص51-52.

[7] ينظر: فريحة، أنيس إلياس، نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت – لبنان، (د.ت)، ص41:50.

[8] ينظر: الكواري، كاملة مُحَمَّد، المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002م، ص118.

[9] ينظر: الرازي، مُحَمَّد يحيى، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، المطبعة الخيرية، القاهرة- مصر، ط1، 1407هـ-1986م، 263/1.

[10] البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ت: مجموعه من المحققين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ-1997م، 80/1.

[11] ذهب إلى هذا الرأي الطبري والزمخشري، وروي عن ابن عباس، وعن مجاهد، وسعيد بن جبير.

[12] الطبري، مُحَمَّد جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، 514/1.

[13] الزمخشري، محمود عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 272/1.

[14] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 192/1.

[15] ينظر: الحمد، مُحَمَّد إبراهيم، فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه، (د.ت)، ص56.

[16] ابن جني، الخصائص، 42/1.

[17] المرجع السابق، 48/1.

[18] ينظر: السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، 19/1.

[19] ينظر: الجرجاني، علي مُحَمَّد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، ص28.

[20] ينظر: الحمد، مُحَمَّد إبراهيم، فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه، ص61.

[21] ابن جني، الخصائص، 45/1.

[22] ابن تيمية، أحمد عبدالحليم، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1416هـ، 90/7.

[23] ابن النجار، مُحَمَّد بن أحمد، شرح الكوكب المنير، ت: مُحَمَّد الزحيلي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، 202/4.

[24] ينظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 40/1.

25 ينظر: المسدي، عبدالسلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986م، ص118.

[26] ينظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 20/1.

[27] ينظر: الحمد، مُحَمَّد إبراهيم، فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه، ص62.

[28] ينظر: George Boeree, "The Origins of Language" webspace.ship.edu, Retrieved 2018-7-25. Edited.

قائمة المصادر والمراجع

1-البغوي، الحسين مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ت: مجموعه من المحققين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ-1997م.

2-ابن تيمية، أحمد عبدالحليم، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1416هـ.

3-الجرجاني، علي مُحَمَّد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

4-ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، (د.ت).

5- الجوهري، إسماعيل حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

6- ابن خلدون، عبدالرحمن مُحَمَّد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، ١٤٠٨هـ.

7- الحمد، مُحَمَّد إبراهيم، فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه، (د.ت).

8- الرازي، مُحَمَّد يحيى، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، المطبعة الخيرية، القاهرة- مصر، ط1، 1407هـ-1986م.

9- الزمخشري، محمود عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ .

10-السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

11-الطبري، مُحَمَّد جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

12-الظاهري، مُحَمَّد عمر، اللغة العربية بين القاعدة والمثال، (د.ت).

13-فريحة، أنيس إلياس، نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت - لبنان، (د.ت).

14-قناوي، هدى مُحَمَّد وآخرين، علم نفس النمو، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

15-الكواري، كاملة مُحَمَّد، المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002م

16-المسدي، عبدالسلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986م.

17-ابن النجار، مُحَمَّد أحمد، شرح الكوكب المنير، ت: مُحَمَّد الزحيلي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

18- webspace.ship.edu, Retrieved 2018-7 George Boeree, "The Origins of Language"Edited.